

الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة

١٨٥٤ - ١٩٠٤

للدكتور دوف عباس حامد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

لا ريب أن الأصول الثقافية لكل مجتمع من المجتمعات هي محصلة الإنجازات الحضارية في المجتمع بكل جوانبها : الأدبية ، والفنية ، والصناعية ، والسلوكية ، وغيرها . وتقييماً لأي مجتمع من المجتمعات في مرحلة من مراحل تطوره الحضارى ، إنما يعتمد على ما يتوافر له من أصول ثقافية ، وما ننسج به مرحلة التطور هذه من توازن بين المكونات المختلفة للثقافة . وبقدر ما يتحقق هذا التوازن ، يتحدد مسار التطور الذى يقطعه المجتمع في مراحل حياته ، والذى يشتمل على جميع العناصر المكونة للحضارة من تراث أصيل ، وأسلوب للتعبير عن ضمير المجتمع ، وقيم جمالية ينسج بها ... الخ . فإذا تطور أحد هذه العناصر بصورة أسرع من تطور العناصر الأخرى ، أو تجمدت بعض هذه العناصر عند حد معين من التطور ، بينما استمرت العناصر الأخرى في تطورها ، فإن ذلك يؤدي إلى وقوع التناقض بين العناصر المكونة للشخصية الاجتماعية مما يترتب عليه إهانة عمالية التطور الحضارى ذاتها .

وتجربة النهضة اليابانية الحديثة (١٨٥٤ - ١٩٠٤) وهي الفترة التي غلب فيها على التجربة اليابانية الأخذ بالمظاهر المادية للحضارة الغربية من حيث

التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، وإقامة صناعة حديثة، وتكوين مؤسسات الدولة بالمفهوم الحديث، جديرة بالدراسة، فهي تقدم لنا نموذجاً للتطور غير المتجانس بين العناصر المكونة للشخصية الحضارية اليابانية. فعلى حين بقي التراث الثقافي للشعب الياباني جامداً عند مرحلة معينة من مراحل التطور لم تتجاوز حدود المحافظة على الأفكار القديمة المتوارثة، وظل سلوك الشعب منحصراً داخل إطار تراثه الموروث، تطورت الصناعة والأساليب الفنية بصورة سريعة غير متجانسة مع بقية المظاهر الحضارية في المجتمع الياباني.

ودراسة مثل تلك التجربة يحتاج منا إلى لقاء نظرة على الظروف التاريخية التي أحاطت بها وتمت في ظلها، مع الإهتمام - بصفة خاصة - بالآصول الثقافية التي كانت بمثابة الأرضية التي قامت عليها تلك المرحلة الهامة من مراحل تطور المجتمع الياباني.

فقد لفتت اليابان أنظار العالم في عام ١٩٠٤ حين ظهرت على مسرح السياسة العالمية كدولة شرقية حديثة، قادرة على إلحاق الهزيمة بدولة أوربية كبرى هي روسيا، وكان ظهور اليابان كقوة لها شأنها ثمرة جهود نصف قرن من الزمان، عمل الشعب الياباني خلاله في صمت وصبر وعزيمة لا تعرف الكلل من أجل بناء الدولة العصرية. وتبدأ تلك الفترة بعام ١٨٥٤ الذي أرغمت فيه اليابان لإرغاماً على كسر حلقة العزلة التي ضربتها حول نفسها مدة قرنين من الزمان تحت حكم أمراء الإقطاع من أسرة طوكوجاوا Tokugawa Bokufu الذين حجروا على سلطة الإمبراطور، وإنفردوا بحكم البلاد باسمه ومنذ ذلك التاريخ بدأت اليابان مسيرتها على طريق تأسيس الدولة الحديثة.

وبنت اليابان نهضتها الحديثة على يد حركة سياسية قامت في عام ١٨٦٨، لاستعادة سلطة الإمبراطور، وتمت تصفية الإقطاع، وإقامة الدولة القومية

ذات الحكومة المركزية ، وأدخل نظام التعليم الحديث ، وتم بناء الجيش وفق النظام الغربي ، وأقيمت صناعة حديثة ، وأصبحت دعائم الحكم على أسس دستورية تتلائم مع ظروف البلاد، إلى غير ذلك من مظاهر الدولة التي حققتها اليابان فيما يعرف في تاريخها بعصر مايجي Meiji (١٨٦٨-١٩١٢)

يرجع المؤرخون بداية التاريخ الياباني إلى عام ٦٦٠ ق . م . ، حيث درج اليابانيون على اعتبار عهد الإمبراطور جيمو Jimmu بداية لتاريخ بلادهم بينما يذهب بعض المؤرخين إلى أن اليابان ليس لها تاريخ معروف قبل الميلاد وأن تاريخها إنما يبدأ حوالى نفس الوقت الذى بدأ به التقويم المتلادى . ومهما كان الأمر فإن الشعب الياباني برز إلى الوجود عند مطلع التقويم الميلادى كشعب مستقل يعيش على الجزر اليابانية ، وله حضارته الخاصة المميزة .

وعلى مر تاريخهم القصير ، لم يفقد اليابانيون الصلة بالعالم الخارجى ، والعالم الخارجى هنا هو القارة الآسيوية ، فلم تكن الظروف الجغرافية والتاريخية قد تطورت على النحو الذى نعرفه الآن ، حين ألغيت المسافة ، وأصبحت كلمة العالم ، تعنى الأرض كلها . وإستطاعت اليابان أن تجلب من القارة الآسيوية ألوان الحضارات والثقافات التى سادت فى تلك العصور ، فانتقلت إليها المؤثرات الصينية والمغولية ، إما من الصين مباشرة ، وإما عن طريق كوريا ، فتركت آثارا واضحة على نظام الدولة ، وعلى الحضارة اليابانية . كذلك إنتقلت البوذية إلى اليابان قادمة من الهند عن نفس الطريق ، وأصبحت البوذية عقيدة الشعب الياباني . وخلال عمارة الامتصاص الحضارى تلك لم يكن اليابانيون مجرد مقلدين لتراث غيرهم من شعوب ، وإنما إستطاعوا أن يطوروا حضارتهم الخاصة بهم ويطوعوا تلك الحضارات الوافدة لظروف وتقاليد المجتمع الياباني (١) .

فقد إمتاز اليابانيون بالقدرة على هضم المؤثرات الحضارية الأجنبية ، مع المحافظة في الوقت نفسه — على القيم التي توارثوها عن أجدادهم ، حتى يبدوا ما اقتبسوه من الحضارات الأجنبية وكأنه عنصر أصيل في الحضارة اليابانية ذاتها ، بعد ما يوفقون بين العناصر المكتسبة والعناصر الأصلية المتوارثة .

وهذه المقدرة التي تمتع بها اليابانيون يمكن أن نلمسها في مجالات متعددة ، من بينها اللغة اليابانية التي تحفل بالكثير من المفردات الأجنبية ، وقد حرص اليابانيون على إتخاذ التراكييب الصينية للدلالة على المفردات ذات المعاني الهامة ، بما في ذلك المفردات التي لاكتسبتها اللغة اليابانية من اللغات الأوروبية ، وكثيرا ما كانت تحمل الكلمات المستعارة من اللغات الأجنبية معاني متعددة في اليابانية تتجاوز المعنى الذي كانت تحمله في لغتها الأصلية ، فقد كانت تلك الكلمات المستعارة في الأصل أسماء وحين أدخلت على اليابانية لاستخرجت منها صيغ مختلفة كالأفعال والصفات بعد إضافة الضوابط النحوية إليها . وبذلك تتحول الأسماء التي اقتبست من اللغات الأجنبية للتعبير عن أشياء لا تتضمنها المفردات اليابانية ، تتحول بعد إدخالها على اليابانية إلى مادة لغوية ذات طابع ياباني يحملها تختلف كثيرا عن الأصل التي استمدت منه . وبذلك بقيت اللغة اليابانية تحتفظ بطابعها المميز — رغم المؤثرات الأجنبية التي تعرضت لها — دون أن يطرأ عليها تغير ملحوظ (٢) .

وفي ميدان السياسة أيضا كانت اليابان دائما قادرة على هضم الاتجاهات السياسية المختلفة دون أن يتأثر بذلك السكيان السياسي لليابان ، ودون أن يصبح ذلك تغييرا هائلا للحاكمة . فلم تشهد اليابان على مر تاريخها ثورة راديكالية تطيح بطبقة حاكمة لتحل محلها طبقة أخرى ، رغم أن النظام السياسي في اليابان لحقه التغيير والتبديل ، فظلت الأميرة الحاكمة تحظى

باحترام الناس وتوقيرهم وإجلالهم بفضل ما كان لها من سلطنة روحية
تضرب بجذورها في أعماق التراث الياباني القديم .

ونستطيع أن نقبين ظاهرة الامتصاص والهضم الحضارى في أسلوب حياة
اليابانيين من حيث الملبس والمأكل والمسكن ، وكذلك في الفن الذى حقق
الوحدة بين القديم المتوارث والحديث المكتسب في إطار واحد ، وفى ميدان
العقيدة الدينية استطاعت اليابان أن تجمع بين العقائد المتباينة ، والتي تدور
حولها خلافاً كبيرة وحادة في بلادها الأصلية فتتحول في صيغتها اليابانية
إلى مزيج جديد من تلك العقائد مجتمعة دون تناقض بينها ، وذلك بعد تطويع
تلك العقائد للتراث الياباني وإدخال بعض عمليات التطعيم عليها ، بما يترتب
عليها من حذف وإضافة ، فتبدو في سماتها اليابانية بعيدة إلى حد كبير عن
أصولها التي استمدت منها (٣) .

فقد استطاع اليابانيون أن يجمعوا بين ثلاث عقائد هي : الشنتوية -
Shintoism (اليابانية) ، والبوذية (الهندية) ، والكونفوشوسية (الصينية)
في وقت واحد ، وبرزوا بينها لتصبح عقيدة يابانية واحدة ، تطويع
الكونفوشية والبوذية لمعتقدات الشنتوية التي ترتبط بالوطن الياباني والاميرة
الحاكمة . وليس أدل على ذلك من موقف اليابانيين من نظام الحكم الامبراطورى
سليل الآلهة ، وفي البوذية اعتبروه «سليل بوذا العظيم» وفي الكونفوشوسية
اعتبر الامبراطور «منبع الفضائل التي يقوم على أساسها المجتمع الخير» .

كذلك كان الحال بالنسبة لفسكرة المساواة الاجتماعية من وجهة نظر
العقيدة الدينية ، فقد كان الأبطال اليابانيين ينشئون على تقبل التفاوت بين
المساكنة الاجتماعية للناس ، ووجد هذا الموقف التبرير المناسب في التراث
الدينى الياباني ، فالناس غير متساوين لأن دماءهم ليست واحدة : الامبراطور
— مثلاً — تجرى في عروقه دماء الآلهة لأنه انحدر من نسل الآلهة الشمس

وعلية القوم انحدروا من سلالة ذات منزلة رفيعة متأصلة ، وإذا كان هذا موقف الشنتوية من فكرة المساواة الاجتماعية ، فإن التطبيق الياباني للكونفوشية أخذ بهذا المبدأ أيضاً ، فاعتبر الناس مختلفون اجتماعياً بقدر ما يتوافر لهم من الفضائل : فدوى الفضائل العالية السامية يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، أما أولئك الذين لا يتوافر لهم إلا درجات محدودة من الفضائل فيصنفون اجتماعياً حسب حظهم من تلك الدرجات . كذلك عالج التطبيق الياباني للبوذية فكرة التفارقات الاجتماعية فربط مكانة الناس الاجتماعية بما لديهم من مقدرة على الكفاح من أجل الخلاص ، وهم كما يتفاوتون في الصبر على الكفاح ، يتفاوتون كذلك في التنمية الاجتماعية (٤) .

شيء واحد لم نحاول اليابان أن نتعرف عليه هو المسيحية ، فحين بدأ الجزويت نشاطهم التبشيري عام ١٥٤٩ قاومهم حكام اليابان ، ومنعهم من دخول البلاد ، وحرموها على الشعب اعتناق المسيحية ليحافظوا على التراث الديني الياباني ، وليحولوا دون تغلغل الأجانب ، ومن ثم التدخل الأجنبي في البلاد . وقد ظلت فكرة اليابانيين عن المسيحية متأثرة بهذا الاتجاه ، حتى بعد سقوط النظام الإقطاعي وبناء الدولة الحديثة . ويتجلى ذلك بوضوح في آراء كبار المفكرين اليابانيين في عصر مايجي المتعلقة بالدين ، إذ يقول فوكوزاوا المفكر اللبرالي : « إن العقلية اليابانية لا تقبل المسائل ذات الوجوه المتعددة ، وإنما تميل إلى تلك التي لها جانب واحد ، فهم يتقبلون التشابهات ويرفضون المتناقضات ... وإتق أكره الغيبات ، ولكن الأفكار الغيبية (الفكر التقليدي الياباني) أحب إلى نفسي من مسيحية الرجل العصري ، لأنها على الأقل مخلصة وجادة ، وتختلف بصورة جذرية عن ديانة الرجل العصري التي ليست سوى نوع من الهواية ... » (٥) .

ولكن ذلك لا يعني أن اليابان أغلقت أبوابها دون المؤثرات الحضارية

الغربية ، فقد أخذ بصيص من الثقافة الغربية يتسرب إلى البلاد عن طريق الهولنديين الذين سمح لهم بالانجار مع اليابان في مكان محدود هو جزيرة ديجما Dejima التي تقع بخليج نجا ساكي ، فقد قدر لهذه الجزيرة أن تكون الجسر الذي انتقل عبره قبس الثقافة الغربية إلى اليابان منذ أواخر القرن السادس عشر ، حتى منتصف القرن التاسع عشر حين أرغم السكودودو بيرى Commodore Perry القائد البحري الأمريكى اليابان على فتح موانئها أمام التجارة الغربية في عام ١٨٥٤ ، ومنذ ذلك الحين بدأت المؤثرات الثقافية الغربية تغزو اليابان لتضمها على أعقاب العصر الحديث (٦) .

ولم تقبل اليابان الحضارة الغربية بنفس الطريقة التي تقبلت بها الحضارات الآسيوية ، ولم تهضمها بالسهولة التي هضمت بها تلك الحضارات ، فلقبت الأفكار الغربية مقاومة صلبة من العقلية اليابانية التي تكونت على نمط تقليدى معين ، وتأثر التراث اليابانى بالحضارات الشرقية التي اقتبس منها ما اقتبس ، وكان هذا التراث متلائماً مع أسلوب الإنتاج السائد في ذلك العهد باعتباره إنتاجاً زراعياً تقليدياً في ظل نظام إقطاعى ، فلم يكن ثمة تناقض بين القيم المتوارثة وبقية مظاهر الحضارة السائدة في المجتمع حينذاك فكان التطور متوازناً حتى ذلك الحين ، ولكن إدخال الأساليب الغربية في التعبير والإنتاج التي تطورت في ظروف تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك التي عاشها المجتمع اليابانى لا يتوازن مع القيم التقليدية اليابانية العتيقة . ومن هنا كان نفور اليابانيين من الحضارة الغربية شديداً وكان موقفهم عنها عدائياً متطرفاً . لذلك لم يكن غريباً أن يرفع اليابانيون — في ذلك العهد — شعار « اطردوا الأجانب واستعيدوا سلطة الامبراطور Sonno Joi » ، في وجه المؤثرات الحضارية الغربية الوافدة ، وفي وجه التزق الداخلى الذي عانت منه البلاد في أواخر عهد الحكام الإقطاعيين من أسرة طوكوجاوا . وأطلق اليابانيون على الأوروبيين اسم « البرابرة ذوى الشعر الأحمر » ، وأطلقوا على علوم الغرب

أمم د علوم البرابرة ، واعتبروا كل من يروج لأفكار الغرب أو علومه
عائن لوطنه جزاؤه الإعدام^(٧) .

ولكن التحدى الغربى الذى واجهته اليابان على يد بيرى Perry واستسلام
الحكام اليابانيين له ، جعل الشعب اليابانى يراجع موقفه من الحضارة الغربية ،
فالأمريكيين انتصروا على اليابان وفرضوا عليها الانفتاح على العالم الخارجى
وفتح موانئها للتجارة العالمية ، وما كان لهم أن يحققوا ذلك لولا تمتعهم بالقوة
التي تفتقر إليها اليابان ، فقد انتصروا لأنهم الأقوى ، ولا بد أن يكون هناك
سبب لهذه القوة المادية . إذن لماذا لا تبحث اليابان عن هذا السبب وتتزود به
لتصبح قادرة على مواجهة الغرب أو على الأقل مقاومته .

لذلك صرف اليابانيون النظر عن شعار داطردوا الأجانب وبدأ حكام
بعض المقاطعات الإقطاعية يشجعون النابيين من أبناء مقاطعاتهم على تعلم
معارف الغرب ، وأوفد بعضهم بعثات محدودة إلى بريطانيا وأمريكا لدراسة
الهندسة ، وبدأ البعض الآخر إقامة مشروعات صناعية ، وإعادة تنظيم
جيوشهم وفق النظام الغربى الحديث . وامتدت محاولات الإصلاح المحدودة
هذه لتشمل البلاد كلها بعد نجاح حركة استعادة سلطة الامبراطور فى عام
١٨٦٨ ، فأصبح شعار د التحضر والاستنارة Bunmei Kaika ، هو شعار عهد
الإصلاح الذى عرف فى تاريخ اليابان باسم عصر مايجى Meiji^(٨) .

غير أن ذلك لا يعنى أن النهضة اليابانية الحديثة قامت على أسس فكرية
غربية خالصة ، فقد كان التطور الاقتصادى والسياسى الذى حققته اليابان فى
عهد مايجى ، منصباً على جانب واحد هو جانب الإنتاج ونظام الحكم ولم
يصحبه تطور مماثل فى الأصول الثقافية التى قامت عليها الحضارة اليابانية التى
ظلت تحتفظ بطابعها التقليدى الذى وصلت إليه عند منتصف القرن التاسع
عشر ، وحدث عند هذا الحد من التطور فلم تواكب التطور فى النواحي

الاقتصادية والسياسية ، فحدث تناقض كبير بين أسلوب التفكير ومنهج العمل ترك أثراً واضحاً على مسيرة التجربة اليابانية ذاتها .

فقد كان التراث الثقافي الياباني يضع إطاراً محدداً جامداً للعلاقات داخل المجتمع تدور حول فكرة «وحدة المجتمع» ، كما عبرت عنها الكونفوشوسية اليابانية ، فالفرد في ظل تلك الفكرة لا قيمة له بذاته ، ولكن قيمة الفرد إنما تكون بالجماعة التي ينتمى إليها سواء كانت الأسرة أو العشيرة أو الأمة ، إذ تسمو الروابط الاجتماعية على العلاقات الشخصية الفردية . ورغم الاعتراف بما للفرد من شخصية مستقلة ، فإن ذلك لا يعني أن الأفراد يتمتعون بمكانة مستقلة عن الجماعة ، وقيمة الفرد ترتبط بمكانة الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها وهي ظاهرة اجتماعية نجد عداها في اللغة اليابانية التي لا تحتوى على صيغة مفرد وصيغة جمع ، وإنما هناك صيغة واحدة تستخدم للمفرد والمثنى والجمع دون تمييز . كما تبدو أيضاً في أسلوب المخاطبة حيث تراعى منزلة المخاطب من حيث الجماعة التي ينتمى إليها ، كما تراعى سن المخاطب داخل الجماعة الواحدة ، فيستخدم الصغير صيغة معينة عندما يتحدث إلى من يكبره سناً ، « فالفرد يعبر عن الجماعة ، والجماعة بدورها تعبر عن الفرد ، على حد سواء » .

قول أحد فلاسفة اليابان في القرن الحادي عشر الميلادي^(١) .

وألقت هذه الظاهرة ظلالها على العقيدة البوذية ، فعند اعتناق اليابانيين للبوذية لم يلقوا بالآلى الاختلاف الواضح بين النفوس البشرية الذي تبرزه البوذية في أصلها الهندي ، ويتضح هذا بجلاء في قول ريونين Ryonin (١٠٧٢ - ١١٣٢) مؤسس أحد المذاهب البوذية اليابانية : « إن الفرد يبدو في جميع الأفراد ، والعمل الذي يستحق الثواب هوكل الأعمال المثابة ، وكل الأعمال الخيرة تنجلي في العمل الذي يستحق الثواب ، وهي تقود إلى أرض الظهارة بفضيل أميدا Amida » وعلى حين تذهب البوذية الهندية إلى أن :

« لا يغنى الأبناء ولا الآباء ولا الأقارب المرء شيئاً حين يدنو أجله . . . » ،
وأنه « لا سلطان على النفس سوى النفس ذاتها » ، فتركز بذلك على الاعتماد
على النفس باعتباره ركن الفضائل ، وترى أن الخير في الركون إلى الذات
والبعد عن الناس إذ تقول : « إن أصدقائك هم أصدقاء أنفسهم ... فلماذا
تلتمس صديقا ، وحسبك صداقتك لنفسك » ، وبذلك تقوم البوذية في
أصلها الهندى على الفردية ونبذ الجماعة ، نجد التطبيق اليابانى للبوذية يتواءم
مع طبيعة المجتمع اليابانى وتراثه التقليدى القائم على نبذ الفردية والإيمان
بالجماعة ، فتذهب إلى أنه « يجب أن يكون الفرد أقرب إلى أخواته في البوذية
منه إلى نفسه » ، فتعتبر بذلك عن ذوبان الفرد اليابانى في الخلية الاجتماعية
التي ينتمى إليها (الأسرة) ، وذوبان الخلية الاجتماعية في الخلية الأكبر منها
(القرية) ، لتشكّل جميعا كيانا واحدا (الوطن) (١٠) .

ولعل لفراد اليابانيين بهذه السعة الحضارية يرجع إلى طابع الحياة
الاجتماعية الذى ساد اليابان ، والذى كان يتفق مع الظروف الطبيعية للبلاد ،
فهي ذات جبلية وعرة ، تكسوها الغابات ، ويحتوى على البراكين التى تفسط
أحيانا فتلحق الدمار بما حولها ، ولا تكاد توجد بالبلاد سهول واسعة ،
ولا تزيد مساحة الأراضي الصالحة للزراعة عن خمس مساحة السطح . وهي
تجمع من حيث المناخ بين الصيف الحار شديد الرطوبة غزير المطر ،
والشتاء القارس البرد الذى يتساقط فيه الجليد بغزارة وخاصة في الشمال
والشمال الغربى (١١) . لذلك كان اليابانيون يعيشون في نضال مستمر ضد
الطبيعة ، ومثل هذا الصراع لا يقوى عليه الأفراد ، وإنما يقتضى تضافر
الجمهر من أجل البقاء . فكان لابد أن يعيش الناس في جماعات ذات تنظيم
دقيق يتمتع فيها رئيس الجماعة بسلطات واسعة على أفراد جماعته ، حتى أن
هذه الظروف الطبيعية تركت آثارا واضحة على التكوين النفسى للناس يعبر
عنها القول المأثور الذى تناقلته الأجيال منذ القدم ، والذى يذهب إلى أن

هناك أربعة يثرن الفروع : الزلزال Jishin ، والعاصفة الرعدية Kaminar الحريق Kaji ، والأب (أوروب العائلة) Oyaji . وليس من الغريب أن تكون سلطة الأب أوروب العائلة صارمة كهرامة الكوارث الطبيعية ، لأن مواجهة الحياة في مجتمع له مثل تلك الظروف الطبيعية القاسية يقتضى وجود تنظيم دقيق للجماعة ، يتمتع في ظله رئيس تلك الجماعة بسلطات مطلقة وكلمة مسموعة مرهوبة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الشعوب الهندو — أوروبية — على سبيل المثال — كانت تعيش في الأصل حياة سكان السهول ، حيث الرعى والترحال وتعتمد على الصيد والاغارة على الشعوب الأخرى من حين لآخر . ومن ثم قامت العلاقات الاجتماعية بين تلك الشعوب وبعضها البعض على الصراع والمنافسة التي تدفع موجات الهجرة الهائلة لتلك الشعوب ، أما المجتمع الياباني ، فقد تطور من جماعات محلية تحترف الزراعة وخاصة زراعة الأرز وغلب الاستقرار على حياتها الاجتماعية ، ناستمرت العائلات على تعاقب الأجيال وإرتبطت العائلات التي تقيم في مكان واحد بأواصر القرى ، وعظم سلطان العرف الاجتماعي ، فاذا أكد الفرد ذاته في مجتمع كهذا لا يسمى إلى نفسه فحسب ، بل يسمى إلى الجماعة التي ينتمى إليها . ومن ثم كانت التربية اليابانية قائمة على غرس قيم الولاء للعائلة الصغرى (الأسرة) والعائلة الكبرى (الأمة) في نفوس النشء (١٢) .

وترتب على ذلك أن أصبح البيت Ie ، يتمتع بمكانة رفيعة في التراث الثقافي الياباني ، وفكرة البيت ، ذات مدلول واسع المعنى يتجاوز حدود بيت الأسرة ليشمل بيت الأمة (الوطن) . ولا يبت بدون آباء ، فالمحافظة على البيت تقتضى مراعاة تعاليم السلف . ولذلك وجب على الأفراد تدعيم البيت ، والعمل على رفع شأنه ، وإطاعة رب البيت . ولا تعنى فكرة البيت ،

- كما استقرت في ضمير الشعب الياباني - أن تكون رابطة الدم هي أساس العلاقة بين من يقيمون فيه ، فلا وزن هنا لصلة الدم ، وإنما رابطة المسكان هي التي تجمع بين سكان البيت ، وكذلك رابطة العمل الانتاجي أيضا . فالذين يعملون في فلاحة الأرض يعدون أفرادا في أسرة صاحب الأرض حتى لو لم تجمع بينه وبينهم صلة الرحم ، ومن يعملون لدى التاجر في متجره يعدون ضمن أفراد أسرته أيضا ، لهم ما لأفرادها من حقوق ، وعليهم ما على أفرادها من واجبات .

وقد لعبت فكرة البيت ، دورا هاما في النهضة الاقتصادية التي شهدتها اليابان في مرحلة بناء الدولة العصرية عن عهد مايجي ، فلم تكن المشروعات الصناعية الخاصة التي أقيمت ترتبط بأفراد معينين ، وإنما قامت تلك المشروعات على أكتاف عائلات كبرى (بالمفهوم الياباني للعائلة) ، فلم يكن لأصحاب رأس المال دخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إدارة تلك المشروعات ، وإنما جعلت الإدارة بيد أخصائيين لهم مطلق التصرف ، لا سلطان لأحد عليهم سوى مجلس الإدارة الذي هو - في نفس الوقت - مجلس العائلة .

ولتفسير ذلك نشير إلى أن مجموعة عائلة Mireui - مثلا - التي مارست نشاطها إلى في الأعمال المالية والتجارية منذ القرن الثامن عشر ، ثم نقلت نشاطها إلى ميدان الصناعة في القرن التاسع عشر ، كانت في حقيقة الأمر تتكون من أحد عشر أسرة رأسمالية متساوية تقريبا لا ترتبط بينها رابطة الدم ، ولكنها مارست نشاطها منذ القرن الثامن عشر حتى الآن تحت اسم بيت متسوى ، وكذلك الحال بالنسبة لبيوت سوميتومو Sumitomo وزايباتسو Zaibatsu التي كانت بمثابة إمبراطوريات مالية احتكارية تسيطر على النشاط الاقتصادي في البلاد ، وكان كل عامل في إحدى المؤسسات التي أقامتها تلك البيوت المالية الكبرى يعد نفسه مسئولا عن رواج نشاطها ،

وكانت الطريق مفتوحة دائماً لمن يظهرون كفاءة ومقدرة ممتازة من العمال للترقى في مناصب الإدارة حتى يصبحون أعضاء في مجلس العائلة صاحبة رأس المال ويحملون لقبها . ومن ثم كان التفانى في العمل هدف الفرد ليظل لمسم العائلة مرموقة ويتحقق النجاح لمشروعاتها^(١٣) ولعل ذلك يفسر ظاهرة النمو الاقتصادي السريع لليابان على مدى نصف قرن (١٨٥٤ — ١٩٠٤) فلم يكن هذا النمو العظيم يعتمد على الامكانيات المادية وحدها ، وإنما كانت تغذية التقاليد اليابانية العريقة القائمة على « وحدة المجتمع » .

وأثمرت هذه الوحدة الاجتماعية الفريدة اتجاهها أخلاقيا يدفع الفرد إلى التضحية بالنفس والجود بها عن طيب خاطر من أجل مصلحة الجماعة التي يربطها حياتها ، ولعبت هذه القيمة الخلقية دورا هاما في المجتمع الياباني ، ولمنع كسب على تاريخه ، وتطورت الفكرة من التضحية بالنفس من أجل الأسرة ، إلى التضحية بالنفس من أجل العشيرة في ظل النظام الاقطاعي ، إلى التضحية بالنفس من أجل الوطن والامبراطور في مطلع العصر الحديث^(١٤) .

وكان من الصعب أن تنقسم هذه الرؤية التقليدية للمجتمع مع روح العصر الحديث الذي بدأت اليابان تطرق أبوابه في عصر مايجي ، ومع الليبرالية الغربية التي كانت تمثل الإطار الأيديولوجي لذلك العصر والتي تقوم على أساس إسقاط القيود عن حرية الأفراد ، ومشاركتهم بصورة إيجابية في إدارة أمور البلاد على قدم المساواة وفي محتوى ديمقراطي .

لذلك لم تشهد اليابان في مرحلة بناء الدولة العصرية (١٨٥٤ — ١٩٠٤) ثورة برجوازية على نحو ما عرفته أوروبا ، فقد أنهى الحكام الاقطاعيين من أسرة طوكوجاوا عن الحكم بعدما سلبوا السلطة الفعلية من الإمبراطور

مدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، واستعداد الامبراطور سلطنته كاملة ،
وتم ذلك كله على يد فريق من الأمراء الانطاعيين أنفسهم الذين عرفوا باسم
الساموراي Samurai بهدف انقاذ البلاد من الفتن والانقسامات الداخلية ،
والحيلولة دون وقوعها تحت نير الاستعمار الغربى وخاصة بعد ما استسلم نظام
طوكوجاوا للأمريكيين وقرر فتح موانئه أمام التجارة العالمية بعد قرنين
كاملين من العزلة التى فرضت على البلاد .

وكان الامبراطور الذى يتربع على العرش حينذاك هو الامبراطور
موتشيتو Mutshito الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشر من عمره . ومن
الطريف أنه كان بين الساموراي الذين تزعموا هذه الحركة بعض أفراد من
أمره طوكوجاوا نفسها ، فساهموا بأيديهم فى تفويض ساطة عائلاتهم لحساب
الامبراطور الصبى . ولكنه موقف يتسق تماما مع العقيدة اليابانية التى تكونت
على نمط معين يستند إلى التراث الفكرى اليابانى فالامبراطور ليس مجرد
حاكم سيامى ، ولكنه يعد سليلا للآلهة عبادته فرض واجب على كل يابانى .
وتستند هذه الفكرة إلى العقيدة الشنتوية التى تذهب إلى أن السماء والأرض
كانتا كتلة واحدة ، ثم انفصلت السماء عن الأرض ، وبعد انفصالهما هبطت
الآلهة Izanami والآله Izanagi من السماء على جزيرة Onokoro وخلقا معا
جزر Oyashima (الجزر اليابانية) ، ثم خلقا بعد ذلك بقية الآلهة : إله
الرياح ، وإله الأشجار والجبال ، ولقيت الآلهة Izanami حتفها متأثرة
بحروقها البالغة حين وضعت إله النار . وتذكر الأساطير الشنتوية أن زوجها
الآله Izanagi اشتاق لرؤيتها ، فذهب إلى أرض اللين حيث انتهى بهائم عاد
مرة أخرى إلى العالم ولما غسل من تراب الموت فاذا بثلاثة آلهة يخرجون من
عينيه وأنفه ، ومن بين هؤلاء الآلهة الثلاثة آله الشمس Amaterasu Omikami
التي إنحدر من نسلها أباطرة اليابان .

ومثل هذه التوليفة من خلق الكون والنظام السيامى نادرة الوجود فى

الحضارات الشرقية الأخرى بما في ذلك الحضارة الفرعونية وأكثر من ذلك فإن لفظ oyake في اليابانية القديمة كان يقصد به (العائلة الرئيسية) أى العائلة الامبراطورية ، بينما أطلقت كلمة Koyake على الناس كافة وتعنى (العائلة أو العائلات الصغرى) . ومن ثم ساد الاعتقاد أن العائلة الامبراطورية هى نواة الشعب اليابانى كله ، ولارتبطت بهذه العقيدة مفاهيم « الأمة المقدسة » والشعور الوطنى المنتظر الذى إمتاز به الشعب اليابانى حتى أن الأباطرة درجوا على أن يضمّنوا ديباجة المراسيم التى يصدرونها عبارات مثل : ... نحن مالك ثروات العالم ... نحن مالك زمام القوة فى الدنيا ... ، (١٥) .

وإذا أدركنا ذلك كله فهمنا الدوافع التى جعلت فريقا من الساموراي يثرون على إخوانهم فى السلاح والمصلحة من أجل استعارة سلطة الامبراطور وإقامة دولة قومية مركزية عصرية قوية تحمى البلاد من الخطر الذى كان يهددها وتنفذها من الوقوع تحت نير الإستعمار الغربى . أضف إلى ذلك فكرة الولاء للبيت كوطن للأسرة الصغيرة أو البيت (اليابان) كوطن للأمة اليابانية ، وهى فكرة غرست فى تكوين العقلية اليابانية شعورا وطنيا متطرا فإيمزج بين الولاء للوطن وطاعة رب العائلة (الامبراطور) والتضحية بالنفس فى سبيلها .

فمنذ عهد بعيد إستقر فى أذهان اليابانيين أن بلادهم « أعظم بلاد العالم قاطبة » ، لأن الآلهة صنعتها قبل صنعها لبقية بلدان العالم ، فهى بمثابة الابن البكر للآلهة ، وهى أرض لها قداستها وإحترامها . ولعل أول ذكر لعبارة اليابان العظمى Dai Nippon « — التى راجت فى فترة ما بين الحربين العالميتين — يرجع إلى القرن التاسع الميلادى حين أورد الفيلسوف اليابانى Dengyo هذه العبارة فى كتاباته . ولم يكن لهذه العبارة — عندئذ — مدلول سياسى ، وإنما قصد بها صاحبها أن اليابان أنسب البلاد للعقيدة البوذية . وإستقر مفهوم « اليابان العظمى » فى القرن الرابع عشر الميلادى عند كونها « أمة مقدسة » جاءت من نسل الآلهة الشمس ، ومن ثم وجب على أبنائها أن يعملوا

على جعلها أعظم بلاد الدنيا ، وأن يظل الأباطرة الذين إنحدروا من نسل الشمس متربعين على عرش اليابان ورأى اليابانيون في المفهوم السياسي للدولة ، اليابان ذاتها حيث يحتل الامبراطور منزلة الأب بالنسبة للأمة اليابانية (١٦) .

وقد تمت الكونفوشيوسية الأساس النظري الذي قام عليه هذا الشعور الوطني المتطرف ، فقد اعتنق اليابانيون الكونفوشيوسية التي إتخذها الصينيون من قبل نظرية رسمية لمفهوم الدولة والسلطة (فيما عدا الجانب الخاص بتغيير الحاكم الفاسد) وذلك على الرغم من إختلاف وجهة النظر الخاصة بالدولة عند فلاسفة الصين عنها عند اليابانيين ، فبينما رأى الصينيون الدولة شيئا مثاليا نموذجيا أشبه ما يكون بالمدينة الفاضلة ، رأى اليابانيون في الدولة الحقيقية اليابان ذاتها حيث الحاكم والأب يحتلان نفس المنزلة . لذلك نعى المفكرين اليابانيون على كونفوشيوس مغادرته لبلاده سعيا وراء البحث عن مجتمع أفضل يحكمه حاكم عادل . وفي ذلك يقول يوشيدا (١٨٣١ — ١٨٥٩) (١٨٥٩) أحد دعاة حركة التجديد في اليابان : كان كونفوشيوس ومنشيوس على خطأ عندما تركا بلدهما وذهبا ليجدما دولة أخرى ، لأن الحاكم له نفس منزلة الأب وأن من يصف الحاكم بالرعونة والظلم مثله كمثل من يرمى أباه بالخيانة ، ويترك بيته حيث تقيم عائلته ، ويلجأ إلى بيت الجيران ويصبح أبنا لهم ، ولذلك فإن كونفوشيوس كانا قصيرا النظر ، ولا يمكن أن نلتمس مبررا لما أقدمنا عليه ، (١٧) .

وقد وجه هذا الشعور الوطني الذي يعد الوطن بيت الأمة ، والحاكم رب البيت ، النظرة اليابانية إلى البوذية فرغم انتشار البوذية في اليابان على نطاق واسع ، رفض اليابانيون فكرة الدولة ، البوذية ، فذهب مفكرو القرن الرابع عشر إلى ضرورة إعتماد الفكر البوذي مع التغاضي عن الجانب الخاص بالدولة ، يبررون ذلك بأن رؤية البوذية للدولة هندية ، وقد يكون حكام

الهند منحدرين من سلالة البشر أسندت اليهم شعوبهم مهمة الحكم ، ولكن العائلة الامبراطورية اليابانية هي العائلة الوحيدة التي انحدرت من صلب الآلهة ، ولذلك لا يجب أن تكون سلطتها موضع مناقشة .

وقد تجلّت ملامح هذا الشعور الوطنى الذى عرفته اليابان قبل عهد مايجى فى تضحية اليابانيين منذ القدم بحياتهم من أجل بلادهم وإيقاف حياتهم على خدشاتها وهى سمة لم تتوافر لدى معظم شعوب الشرق فيما قبل القرن التاسع عشر . وقد تطورت « الوطنية » اليابانية من مفهوم الدولة اليابانية ذاته وليس من مفهوم « الدولة » كمعنى مجرد ، ولذلك صلة وثيقة بظاهرة « الوحدة الاجتماعية » التى تربط بين الناس والأرض والسلطة فى إطار واحد ، وقد ساعد الموقع الجغرافى على احتفاظ اليابان بهذه الوحدة وثيقة العرى ، فهى تتكون - كما هو معروف - من جزر معزولة عن القارة الآسيوية ، ولم تعهد الغزو الأجنبى إلا فى حالتين أولهما الغزو المغولى الذى لم يقدر له النجاح ، وثانيهما الاحتلال الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية . ودعم هذا الشعور الوطنى الفياض قيام صلة الفرد بالدولة على أساس أمرى فالشعب اليابانى أسرة واحدة ذات أصل واحد تسكن بيتاً واحداً هو اليابان ويرعاها رب واحد هو الامبراطور .

وبذلك توافرت لليابان ملامح « وطنية » واضحة ، قبل القرن التاسع عشر بزمان بعيد ، وقبل وصول المؤثرات الفكرية الغربية الحديثة إلى البلاد . وقامت تلك الملامح على أسس راسخة من التراث الثقافى اليابانى ، لتعبر عن واقع مختلف اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً اختلافاً جذرياً عن فكرة « القومية » بمفهومها الحديث .

لذلك كان شعار « استعيدوا سلطة الامبراطور » الذى اتخذته الحركة المناهضة للحكم الإقطاعى - يفعل فعل السحر فى نفوس الناس . ولم ياق القائمون على الحركة مقاومة ذات بال ، لحققوا هدفهم بإقصاء آخر حكام

طوكوجاوا ، وإقامة سلطة قومية مركزية ، وإلغاء الإقطاع ، وإقامة نظام تعليم حديث مقتبس من الغرب ، وصناعة حديثة ، وجيش حديث وفق النظام الغربي . وأطلق على عهد الامبراطور Mutsuhito منذ تمت الحركة بنجاح في عام ١٨٦٨ حتى وفاته في عام ١٩١٢ اسم عهد مايجي Meiji (أى الحكم المستنير) . ولكن بناء دولة عصرية على النمط الغربي لم يكن مجرد تقليد أعمى ، ونقل مباشر لأنظمة الغرب ، وإنما أخذ القائمون على أمور البلاد من الثقافة ما لم يتعارض مع تراثهم الفكري ، ووقفوا — أحياناً — بين تراثهم الموروث والفكر الغربي الوافد فيما لا يمس التقاليد اليابانية العريقة ، ورفضوا الأخذ بما لا يتفق مع الخلفية الحضارية للأمة اليابانية وخاصة فيما يتعلق بنظام الحكم فلم يكن بناء الدولة الحديثة مقروناً بقبول الليبرالية الغربية قاعدة لنظام الحكم الجديد ، أو الأخذ بالديمقراطية كإطار للنظام السياسى لتناقضهما مع العقلية اليابانية التى لا تعترف بمبدأ المساواة ، ولا تجادل فى حق الامبراطور فى ممارسة سلطته الأبوية بلا حدود على أبناء شعبه .

ومن ثم تركزت السلطة فى يد صنّاع النظام الجديد ، أى العناصر العسكرية من الساموراي ، فنكون منهم مجلس البلاط ، وشغلوا المناصب الوزارية ، ومارسوا حكم البلاد حكماً مطلقاً باسم الامبراطور حتى عام ١٨٧٣ حين انقسموا على أنفسهم حول مسألة غزو كوريا ، وانشق الجناح المثقف منهم الذى تلقى تعليمه فى الغرب ، ونادى بضرورة إصدار دستور يقر مبدأ المسؤولية الوزارية لتبدأ بذلك حركة المطالبة بالدستور التى عرفت فى تاريخ اليابان الحديث باسم حركة الحرية وحقوق الشعب Jiyu Minken Undo التى تزعمها مثقفوا الساموراي وأعيان الريف ، وكانت موجهة ضد استبداد الساموراي وانقراضهم بالسلطة ، ولم تكن موجهة ضد الامبراطور . وما كاد الامبراطور يصدر إعلاناً (فى أبريل ١٨٧٥) يشير إلى رغبته فى أن يقيم نظاماً دستورياً بصورة تدريجية لتحقيق النفع العام ، حتى خمدت نيران

الحركة . ثم جدد الامبراطور الإعلان في ١٨٨١ ، فوعد باصدار الدستور بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ .

وفي غضون تلك الفترة تكونت ثلاثة احزاب سياسية هي : د الحزب الحر ، Jiyuto ، و د الحزب التقدمي ، Rikken Kaishinto ، و د الحزب الامبراطوري ، Teiaets . ولم تكن تلك الاحزاب السياسية تعبر عن مصالح طبقية متباينة ، فقد جاء أعضاؤها من طبقة واحدة هي ذات الطبقة المسيطرة على مقاليد السلطة في البلاد ، وإنما كانت الاحزاب تعبيراً عن اختلاف وجهات النظر بين قيادات الأرستقراطية الحاكمة . وكان الانتماء للحزب السياسي — في ذلك الحين — لا يعنى اعتناق برنامج معين ، أو أفكار معينة ، وإنما كان يعنى — في المحل الأول — الولاء الذى يربط الأعضاء بشخص زعيم الحزب . ولا يعنى ذلك أن الاحزاب السياسية التى ظهرت في عهد مايجي لم تتأثر بالفكر الليبرالى الغربى ، وإنما كان تأثيرها بقدر محدود لا يتجاوز حدود المطالبة بمسؤولية الحكومة أمام مجلس نيابى منتخب من بين أبناء الصفوة الممتازة وليس من القاعدة الشعبية العريضة . وكانت عضوية الاحزاب قاصرة على نفر من المثقفين الذين ينتمون إلى الطبقة الحاكمة . أما جماهير الشعب فكانت ترى في نظام الحكم السليم ذلك الذى يحمل على بناء اليابان الحديثة ويجد حلاً للمشاكل اليومية التى يعانى منها الناس ، يضع حداً للكساد الاقتصادى الذى شهدته البلاد في الثمانينات على وجه الخصوص^(١٨) .

وحين صدر الدستور في عام ١٨٨٩ كان منحة من الامبراطور إلى الشعب وخلع الدستور على الامبراطور سلطات غير محدودة ، يعاونه مجلس البلاط الذى كان يضم صفوة ممتازة من أعضاء الأسرة الامبراطورية ، ثم مجلس آخر — كان المخطط الرئيسى لسياسة اليابان الداخلية والخارجية حتى عام ١٩٣١ — هو مجلس كبار الساسة Genro . وتكون البرلمان من مجلسين هما : مجلس النبلاء الذى كان يضم جميع أمراء البيت الحاكم وزعماء البيوت الإقطاعية القديمة ،

ثم مجلس النواب ويضم ممثلين للشعب روعى في اختيارهم أن يكونوا على قدر كبير من الثراء ، وذلك أفسح المجال أمام الفئات الاجتماعية التي استفادت من التطور الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر مايجي لتسمع صوتها للحكومة دون أن يكون لها حق مراجعة أو نقض قرارات السلطة التنفيذية (١٩).

وهكذا جاء الدستور الياباني معبراً عن واقع المجتمع الياباني حينذاك ، مركزاً السلطة كلها في يد الامبراطور والصفوة الممتازة التي كانت تملك زمام الأمور قبل صدور الدستور . وارتضت الجماهير هذا الدستور لأنها لم تجد فيه ما يتناقض مع النقبـاليد الموروثة التي تربت عليها وتراثها الحضارى العريق .

ورغم أن الفصل بين السلطتين : الروحية والزمنية ، كان من أسس الليبرالية الغربية ، فإن اليابان ظلت — على النقيض من ذلك — تنظر إلى السلطتين باعتبارهما شيئاً واحداً لا يتجزأ حتى هزيمتها في الحرب العالمية الثانية . فقد كانت الحياة السياسية مرآة صادقة للمعتقدات اليابانية التقليدية على نحو ما رأينا ، ولم ينظر اليابانيون إلى المجتمع إلا من هذه الزاوية ، فحرية الأفراد بمفهومها اللبرالى لم تكن واردة على الإطلاق ، ولما رأى اليابانيون في المواطن الصالح انعكاس صادق للدولة القوية ، فإذا صلحت الحكومة صالح أمر الناس ، ورفاهية المجتمع رهن بمشية الحاكم ، أما القوانين فتعبر عن وجهة نظر الحاكم فيما يراه لازماً لصلاح أمر المجتمع . ولم تر العقلية اليابانية — حينئذ — في تلك القوانين الحارس الأمين على حقوق الأفراد ، والضمان الأكيد لحريتهم الشخصية ، لأن ذلك يعنى تفويض دعائم الوحدة الاجتماعية ، التي قام عليها المجتمع الياباني ، والتي تعد المجتمع أمرة واحدة ، ولا قيمة للفرد إذا انفصل عنها أو خرج عليها ، إذ المجتمع عند اليابانيين — ينقسم إلى حكام ورعية ، ومهمة الدستور — في رأيهم — أن يكون دليلاً للحكام وليس حامياً لحقوق الأفراد (٢٠) .

لذلك بقيت القيادة السياسية — في ظل الدستور الذي صدر في عصر مايجي — بيد الساموراي ، الذين رأوا أن خير اليابان يتطلب تحقيق درجة عالية من التقدم المادى من خلال التصنيع والأخذ بالأساليب التكنولوجية الغربية مع التمسك في الوقت نفسه بالقيم السياسية التقليدية للشعب الياباني التي تقوم في معظمها على الأساطير القديمة . فحرصوا على إقامة صناعة حديثة تعتمد على الأساليب التكنولوجية الحديثة وتقوم على ملكية الدولة لأهم مصادر الإنتاج مع تشجيع المشروعات الخاصة وتقديم العون لها من أجل بناء اقتصاد قوى متطور ثم تسليمها مصادر الإنتاج التي احتفظت الدولة بملكيتها تدريجياً وخروج الدولة من مجال الإنتاج ، والعمل في نفس الوقت على إحياء القيم التقليدية التي ترجع إلى عصور خلت والتركيز عليها في عملية التربية والتعليم ، والتمسك بها كأساس أيديولوجى لمجتمع يتمتع بالرفاهية الاقتصادية والتقدم المادى .

وخلال عملية البناء المزدوج للمجتمع الياباني الحديث الذي يجمع التقدم المادى جنباً إلى جنب مع الفكر التقليدى ، لم يفرض الحكام حظراً على حرية الفكر أو حرية القول ولم يحجروا عليهما ، ولم يفرضوا القيود التي تحد من حرية التعبير ، لأنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك ، طالما أن أفكار الناس — في ذلك العصر — لم تكن تختلف جذرياً عن رؤية الحكام للقواعد التي يجب أن يشيد عليها بناء الدولة الحديثة . فقد قامت في عصر مايجي أحزاب سياسية — على نحو ما أشرنا — ولكن تلك الأحزاب لم تكن تعدو أن تكون د جمعيات سياسية ، لأنها اتفقت جميعاً على الغاية التي تنشد لها بلادها ، ولكن تعددت وجهات نظرها حول السبيل الذي يجب أن يسلك لتحقيق تلك الغاية .

لقد كان الضمير الياباني يرى في الأفراد خدم للمصلحة العامة : مصلحة الأسرة ومصلحة الدولة ، ولا أهمية للفرد بذاته ، كما كان يرى أن علاقة الحكام

بالناس لا يختلف على طابع العلاقة بين الآباء والأبناء . وقد جاءت الأحزاب السياسية في عصر مايجي نتاجاً للضمير الياباني في ذلك الحين ، فلم تكون تختلف جذرياً مع الهيئة الحاكمة ، بل كان أعضاء تلك الأحزاب ينتمون إلى الطبقة الحاكمة بصورة أو بأخرى . وبذلك ظلت السمات الرئيسية للعلاقة بين السيد والاتباع في النظام الإقطاعي تشكل طابع الحياة السياسية في اليابان تحت حكم مايجي على الرغم من أن الإقطاع أنى بصفة رسمية في عام ١٨٧١ .

وقد ظل هذا الطابع غالباً على الحياة السياسية في اليابان طوال مرحلة تكوين الدولة العصرية في عهد مايجي . غير أن التوسع في التصنيع ، وازدياد عدد السكان صاحبته هجرة مستمرة من الريف إلى المدن ، فعلى الرغم من ارتفاع نسبة المواليد في الريف الياباني خلال ذلك العهد وتوفير الرعاية الصحية للسكان ، ظل عدد سكان الريف ثابتاً ، وامتصت المدن التي قامت بها الصناعة الحديثة أكبر قدر من السكان . وأدت هذه الهجرة المتصلة للشباب من الجنسين إلى المدن والمراكز الصناعية إلى أضعاف الروابط الأسرية التي قام عليها المجتمع الياباني ، غير أنها لم تقض عليها قضاء تاماً ، وينعكس هذا التطور على الأدب في عصر مايجي ، فنجدته يحفل بالصراع بين الأمرة والفرد حيث تنتهر الأمرة غالباً (٢١) .

ونستطيع أن نقبين هذا الصراع السكامن تحت سطح المجتمع في الأعمال الروائية التي ظهرت في عهد مايجي ، ففي رواية دماذا بعد Sore Kara ، التي كتبها ناتسومي سوسيكى Natsnme Suseki ، يصف الكاتب انطباع شاب يدافع عن أبيه فيقول : « تلقى والده تربيته على النجوى الذي كان ينشأ عليه الساموراي قبل عصر مايجي ، وما تلقننه الوالد أصبح يختلف عن حقائق الحياة اليومية ، ولكنه لا زال يعتقد في صلاحية تلك القيم التي تعلمها لكل

العصور ، رغم أن ظروف الحياة أثبتت عدم صحة ذلك الاعتقاد . فقد تغير أسلوبه بتغير الظروف المعيشية حتى أصبح واقعة اليوم لا يكاد يشبه واقع الأمس إلا قليلا على الرغم من أنه لا يشعر بذلك التغير . ولا ريب أنه لا زال يظن أن تربيته العسكرية الصارمة من نجاحه ، ولكن دايسكي Daisuke (الابن الشاب) ينظر إلى الأمور بصورة أخرى فكيف يستطيع المرء تلبية حاجات الحياة العصرية من خلال قيم إقطاعية ! فهما بدل المرء من جهد فإن الصراع العنيف سينشب لا محالة بين المرء ونفسه ... ،

ويتجلى هذا التباين بين ما حققته اليابان من نهضة حديثة ومن القيم التقليدية للمجتمع الإقطاعي في رواية أخرى كتبها اشيكوا تاكوبوكو Ishikawa Tokuboku أشهر شعراء عصر مايجي بعنوان Kumo wr tensai dearu يبدو فيها البطل في نفس ظروف الكاتب نفسه لا يرى في المجتمع الياباني في عصره إلا نموذجا للفساد لا يستحق إلا الدمار . وقد كتب المؤلف خطابا إلى أحد أصدقائه ذكر فيه أنه اضطر إلى نشر هذه الرواية حتى يحصل على بعض المال ليدفع التزاما قديما نحو شقيقه الأكبر أهمله منذ زمن بعيد ، ولم يحدد هذا الالتزام بصورة واضحة ، ولكنه يرتبط بالقيم اليابانية التقليدية التي تدعو للنكاف والتضامن بين أفراد الأسرة كلها ، وبطل هذه الرواية كما صوره المؤلف ساخط على قيود المجتمع التي تسلبه حريته وتجعله عبدا لها (٢٢) .

ومهما كان الأمر فإن هذا الصراع بين جيل الشباب الذين تفتحت عيونهم على مجتمع متطور من الناحية التكنولوجية يعيش بقيم إقطاعية بالية لم يكن يستطيع التعبير عن سخطه بصراحة مطلقة ولم يتحول ذلك النوع من المعاناة إلى صراع إيديولوجي أو حربي لأن أحدا من اليابانيين لم يكن يجرؤ على الجهر بمناقشة قيم المجتمع الياباني العداء دون أن يحدد نفسه في مواجهة تهمة الخيانة للدولة ودون أن يعد خارجا على عقيدة الشعب الياباني كله

وقد تحمل المثقفون اليابانيون عبء هذه المعاناة نتيجة التناض بين وافع الحياة وقيم المجتمع ردحا طويلا من الزمان .

غير أن أسلوب التعبير الغربي تسرب إلى الحياة الفكرية اليابانية من خلال بعض المثقفين الذين احتكوا بالفكر الغربي وتأثروا به بدرجات متفاوتة ويأتى على رأس هؤلاء ثلاثة من كبار مفكرى عصر مايجى هم : فوكوزاوا lukuzawa وأوتشيمورا uchimura وأوكاكورا Okakura ، ينتمون إلى الجيل المخضرم الذى عاصر عهد طوكوجاوا وعصر مايجى وانحدروا من أسر إقطاعية عريقة فكانت تربيتهم تقليدية شأنهم شأن أبناء الساموراي ، وحين اشندت أعوادهم نهلوا من منابع الثقافة الغربية ، كما قدموا اليابان والثقافة اليابانية إلى الغرب فى مؤلفاتهم التى نشروها باللغة الانجليزية ، فتجلت فيهم عملية الاحتكاك الفكرى بين اليابان والثقافة الغربية الانجليزية والأمريكية على وجه الخصوص . وظلوا طوال حياتهم يعتقدون أن ثمة رسالة حضارية تقع على عاتق اليابان هى إيقاظ الشرق وإنقاذه من وهدة الاستعمار . فعلى اليابان — فى رأيهم — أن تعين شعوب الشرق على الاستفادة من الجوانب الإيجابية فى الحضارة الغربية التى تساعد على تطوير مجتمعاتهم وتجنب مفهوم المدنية الذى تقدمه دول الغرب لشعوب الشرق فعلى حد تعبير فوكوزاوا « المقصود بالمدنية عندما يتطرق الحديث إليها بين رجال الغرب هو خروج الشعوب الشرقية من مرحلة الحياة الهمجية إلى مرحلة العبودية للرجل الأبيض » .

ومستقبل اليابان عند أولئك المفكرين يعتمد إلى حد كبير على الاهتمام بالتربية والتعليم وتطوير البلاد اقتصاديا مع تلوين العقيدة المسيحية بالتراث اليابانى تماما كما فعلت اليابان بالكوفوشيسوية والبوذية . وانتقد فوكوزاوا فى كتابه أصول الحضارة اليابانية Nihon Bunmei no Yurai الاتجاه الذى كان سائدا فيما قبل عصر مايجى من اتخاذ العلم نوع من الترف وعزلة العلماء

عن المجتمع ودعا إلى استقلال العلم عن سلطة الدولة وإلى اتجاهاه إلى الأخذ بالمنهج التجريبي والعمل على خدمة المجتمع وحل مشاكله وما يقال عن العلم يمكن أن يقال أيضا — في رأيه — عن الفن والعقيدة الدينية .

يتجلى أثر الفكر اللبرالي في تكوين فوكوزاوا بوضوح في مفهوم التطور الحضاري عنده . فهو يرى أن هذا التطور يؤدي إلى زيادة تعقد العلاقات الإنسانية وتشابكها على المستوى المحلي والعالمي سواء بسواء وبصحب هذا التطور تشعب الوظائف الاجتماعية لكل الفئات التي تعيش في المجتمع فلا تستقر الأوضاع الاجتماعية على حال واحد ، وتسقط كل الحواجز التي تصنف الناس على حسب مولدهم ، فكل فرد يجب أن ينظر إليه من خلال أعماله وليس من خلال أصله الاجتماعي . فعلى حد تعبيره ليست أعمال كل من انحدروا من أصول رفيعة طيبة بالضرورة ، وليست أعمال كل من انحدروا من أصول وضيعة سيئة بالضرورة ، وفي هذا نقد صريح للتقاليد اليابانية التي تبرز قيم الأسرة وتركز على الروابط الاجتماعية المحدودة الدائرة ، ولا تعتبر الفرد إلا في نطاق الجماعة التي ينتمي إليها ففكرة المساواة واتخاذ الفرد وانجازاته أساسا لتحديد دوره في المجتمع والمساواة بين الأفراد بغض النظر عن أصولهم الطبقية إنما كانت فكرة جديدة على العقلية اليابانية في ذلك الحين .

لذلك كان من الطبيعي أن يشن أنصار المحافظة على التراث التقليدي الياباني حملة شعواء ضد فوكوزاوا ، ويتصدى فوكوزاوا لهذه المعارضة في مقال مشهور نشره بجريدة تشويا Choya Shimbun جاء فيه : « انهم يخلطون بين الأشياء بطريقة عشوائية نتيجة ما يقدمونه من افتراضات ، فهم يفترضون أن المساواة في الحقوق بين جميع أفراد الشعب مأخوذة من المبادئ الجمهورية والمبادئ الجمهورية مأخوذة من المسيحية ، والمسيحية ثقافة غربية ... وهم يفترضون أنه طالما كانت ثقافة فوكوزاوا غربية ، فإن نظريته الخاصة

بمحقوق الشعب مستمدة من المسيحية والمبادئ الجمهورية ... و ترجع مثل هذه الافتراحات إلى رؤية الأشياء من جانب واحد ... فتاجر الخمر ليس بالضرورة عاقراً ، وصانع الحلوى ليس بالضرورة أكلاً ، ولا يجب أن نحكم على التاجر بمجرد رؤيتنا للبضاعة الموجودة في متجره ... وبذلك يشير فوكوزاوا إلى أن الأفكار التي يقدمها إنما تلبي حاجة المجتمع تماماً مثل البضاعة التي يمرضها التاجر تلبية لطلب السوق . وهو إصرار منه على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات .

وقد اتفق مع فوكوزاوا في هذا الإطار الفكري زميله أوتشيمورا وأوكاكورا فأياً في تدعيم روح الاستقلال الفردي وإطلاق حرية الفرد دعامة أساسية للنهضة الحديثة ، وقاعدة الاستقلال الوطني تمكن اليابان من أن تلعب دور الوسيط بين « أوروبا المادية ، و « آسيا الروحية » ، وتفتح أبواب الشرق المحافظ أمام الحضارة الغربية المتقدمة (٢٢) .

غير أن دعوة هؤلاء المفكرين كانت تبدو غريبة في ذلك العصر فقد ارتضى اليابانيون واقعهم المتصل بترائهم القديم وألفوا الحياة في دائرة الروابط الاجتماعية المحدودة ولم ترى أبصارهم إلى تحقيق المساواة التامة بين المواطنين في مجتمع هرمي حدد فيه موقع كل طبقة بصورة تقليدية مسلم بها من جميع القوى الاجتماعية والسياسية فيما عدا قطاع محدود من المثقفين المفكرين .

وإذا كان هناك تناقض فكري عانى منه بعض اليابانيين في ذلك العصر ، فرد ذلك إلى طبيعة الحياة في مجتمع يمر بمرحلة جديدة من مراحل تطوره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، بما تتضمنه من تباين شائع بين الموروث والمكتسب من المظاهر الحضارية المادية ، فتغيرت عادات الطعام والملبس . أهملت بعض العادات التي تتنافى مع طابع المجتمعات المتحضرة ، وترجمت الكتب والآثار الأدبية الغربية إلى اللغة اليابانية فتركت بصماتها على البناء

الفنى للأعمال الأدبية اليابانية في حدود ضيقة لأن اليابانيون لم ينحسروا
لأسلوب التعبير الغربى ، كما لم يأخذوا بأساليب الحياة الغربية دفعة واحدة ،
ولمّا كانوا يأخذون بها تدريجياً وبحذر شديد .

و خلاصة القول أن النهضة اليابانية الحديثة — فى النصف الثانى من القرن
التاسع عشر — قامت على أصول ثقافية يابانية خالصة مستمدة من التراث
اليابانى التقليدى ، تغذيها تلك المقدرة الفائقة على امتصاص الحضارات الأجنبية
التي امتاز بها الشعب اليابانى على مر تاريخه القصير ، وهضمه للدوائر
الحضارية وإدماجها فى التراث اليابانى حتى تبدو وكأنها جزء أصيل منه ،
فاستوعب اليابانيون الحضارات الشرقية الهندية والصينية والمغولية ، وحاولوا
استيعاب الحضارة الغربية بنفس الطريقة فأخذوا منها الجانب المادى وصدوا
عن جانبها الفكرى ، وأدى ذلك إلى فقدان التوازن بين العناصر المكونة
للشخصية اليابانية التي كانت تعمل بأسلوب آخر متنافس تماماً مع أسلوب
العمل .

غير أن « الوحدة الاجتماعية » ، التي قام عليها المجتمع اليابانى قدمت
الحافز القوى الذى جعل الشعب يساند عملية بناء الدولة العصرية ، ويشارك
فيها بهمة لا تعرف السكل . فقيام المجتمع اليابانى على وحدة اجتماعية متداخلة
نواها الأسرة وإطارها الأمة خلق لدى اليابانيين شعوراً قومياً فريداً جعل
الإحساس بالوجود مرادفاً لمجد الوطن ، وجعل التضحية فى سبيل الأسرة
الصغيرة (العائلة) أو الأسرة الكبيرة (الأمة) غاية كل يابانى وهدفه الأسمى ،
فلم تلق عملية تأسيس الدولة القومية العصرية أى عقبات . وجاء النظام السياسى
الدستورى الذى ركز السلطة فى يد الامبراطور وحفنة من كبار رجال الدولة
متماشياً مع العقلية اليابانية ، وإن بدا متناقزاً مع إطار الدولة العصرية بالمفهوم
الغربى .

وهكذا كانت ظروف اليابان الحضارية تقدم تربة صالحة لنمو الأفكار

الفاشية وقيام دكتاتورية عسكرية ، وهو ما حدث بالفعل في ثلاثينات هذا
هذا القرن ووضع اليابان على الطريق إلى هزيمة عام ١٩٤٥ . ولذلك كانت
عملية إعادة البناء بعد الحرب الثانية تركز على نهضة الجو الملائم لتحقيق قدر
أكبر من الديمقراطية ومحاربة الفكر الياباني التقليدي فأرغم الامبراطور
على إصدار إعلان ينكر فيه ألوهيته ، ومنح البلاد دستوراً يعطى للشعب
سلطات أوسع في مراقبة الحكومة ، ووضع أساس جديد للتربية هدفه تنشئة
جيل ذا أسلوب مختلف في التفكير من جيل ما قبل الحرب ، والعمل على
إضعاف الروابط الاجتماعية العائلية التي تمثل محتوى ذلك الفكر التقليدي ،
ورغم ذلك كله لم يقطع اليابانيون صلتهم بترائهم الحضاري وظلوا أوفياء
لأسلافهم متمسكين بتقاليدهم العريقة ، ويثبت الشخصية اليابانية تقسم
بالازدواجية والبون الشاسع بين أسلوب التفكير ومنهج العمل .

الحواشي

- Sansom, G. B: The Western World and Japan, U.S. (١)
A 1950, pp 167—69.
- Nakamura, H : Ways of Thinking of Eastern People, (٢)
Hawaii 1964, pp 400—2.
- Ibid, p 405. (٣)
- Haltom, D. G : Modern Japan and Shinto Nationalism, (٤)
3 rd. edition, U.S. A 1963, pp 25—90.
- Fukuzawa : Complete Works of Fukuzawa, vol II, (٥)
p 184.
- Yanaihara, T : A Short History of Modern Japan, (٦)
(Tokyo 1966) pp 3—4.
- Keene, D : The Japanese Discovery of Europe 1720— (٧)
1830; London 1969, pp 31—36.
- Beasley, W. G : Rent Britain and the Opening of (٨)
Japan, London 1951, pp 133—44.
- Nakamura H. : Op. cit.[pp 409—13. (٩)
- Ibid, pp 14—15. (١٠)
- Cressey, G. B : Asia's Lands and Peoples, N. Y 1944, (١١)
pp 120—23.
- Nakane, C : Japanese Society, Un. of Calif. 1972, (١٢)
pp 8—22.
- Horie, T : The Transformation of the National (١٣)
Economy. A Chapter in Japan's Economic History (Tobata, ed :
Op. cit./ pp 99, 80—84).
- Ibid, pp 12—16. (١٤)
- Masaharu, A : A History of Japanese Religion, 1930, (١٥)
pp 105 - 7.
- Nakamura, H : Op. cit. pp 434 - 35. (١٦)
- Ibid, pp 445 - 48. (١٧)
- Nobutaka, I : The Beginning of Political Democracy (١٨)
in Japan, 1550, pp 195 - 201.

Ibid, p 210.

(١٩)

Koltom, D. C : Op. cit., pp 115 - 20.

(٢)

(٢١) للمزيد من التفاصيل حول الاتجاهات الأدبية في عصر مايجي راجع :

Kunitomo: Tadao : Japanese Literature Since 1863,
Tokyo 1938.

Smith, T ; The Agrarian Origins of Modern Japan (٢٢)
Stanford Un. Press 1970, pp 206 - 7.

Maruyama, M : Fukuzawa, Uchimura and Okokura. (٢٣)
Meiji Intellectuals and Westernization. (in The Modernization
of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1966). pp 594 - 611.

مصادر البحث

- Beasley, W. G : Great Britain and the Opening of Japan, London 1951.
- Cressey, G.B : Asa's Lands and Peoples, New York 1944.
- Horie, T : The Transformation of the National Economy, A Chapter in Japan's Economic History (in, Tobata, ed. : The Modernization of Japan, vol I, IAEA, Tokyo 1966).
- Holtom, D.B : Modern Japan and Shinto Nationalism. 3 rd, ed., 1963.
- Keene, D : The Japanese Discovery of Europe 1368, Tokyo 1938.
- Maruyama, M : Fukuzawa, Uchimura and Okakura, Meiji Intellectuals and Modernization (in : Modernization of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1966) .
- Masaharu, A : History of Japanese Religion, 1930.
- Nakamura, H : Ways of Thinking of Eastern Peoples, Hawaii 1964.
- Nakane, C : Japanese Society, Un. of California Press 1972.
- Nobutaka, I : The Beginnings of Political Democracy in Japan, 1950.
- Sansom, G.B : The Western World and Japan, 1950.
- Smith, T : The Agrarian Origins of Modern Japan, 1970.
- Yonahara, T : A Short History of Modern Japan (in : Tobata, ed : The Modernization of Japan, vol I, IAEA; Tokyo 1966).

